النقد التكاملي ، التركيبي ، المتعدّد

1_ نشأة المنهج .

أ_ المفهوم :

ب_ المنهج التكاملي في النقد العربي .

_ المناصرون .

_ المعارضون .

_ الممارسة النقدية التركيبية .

المحاضرة الخامسة :

النقد التكاملي ، التركيبي ، المتعدّد ...

1_ نشأة المنهج :

أ_ المفهوم :

النقد التكاملي ضرب مختلف من ضروب النقد لا يتقيد بمنهج واحد خلال العملية النقدية،بل يستعين بجملة من المناهج التي يقتضيها الطابع التركيبي المعقد للنص الأدبي . ولعلّ الفرق بين سائر المناهج والمنهج التكاملي كالفرق_ في عالم السياسة _ بين حكومة الحزب الواحد وحكومة ائتلافية تجمع أطيافا من مختلف الأحزاب .

وتختلف تسميات هذا المنهج من ناقد إلى آخر ، فهو المنهج التكاملي أو المتكامل أو التركيبي أو المركب أو المتعدّد أو المتكثّر أو منهج اللامنهج ، أو منهج من لا منهج له ؛ أي منهج من لا يركن إلى منهج واحد ، وإنما يغمس قلمه في كل المناهج والمحابر ، يمتح منها ما يفيد ويعمّق النص الذي بين يديه" [1]أو النقد الديمقراطي أو النقد الحواري ، أو النقد المفتوح ....

ويرى الناقد ((يوسف وغليسي)) أنه " إذا كان صحيحا أن الناقد الشهير ((ستانلي هايمن)) قد كان رائدا في دعوته إلى نقد (تكاملي) ديمقراطي مفتوح عام 1947 في كتابه ((الرؤية المسلّحة)) والذي انزاحت ترجمته العربية (إحسان عباس ومحمد يوسف نجم) إلى ((النقد الأدبي ومدارسه الحديثة)) ، فإنّ الدعوة العربية إلى هذا المنهج لم تكن _في تقديرنا_ متأثرة بهذا الكتاب ، بل نرجح ميلادها وسط جهل تام به ؛وذلك لتزامن الدعوتين من جهة ،ومن جهة ثانية لأن الترجمة العربية لهذا الكتاب قد تأخرت إلى نهاية الخمسينيات من القرن الماضي. "

ب_ المنهج التكاملي في النقد العربي :

_المناصرون :

بدأت الدعوة الواضحة إلى هذا المنهج في النقد العربي في نهاية الأربعينيات (عام 1948) على يد كل من : سيد قطب وشكري فيصل ، كل في مساره المستقل ، فقد قسّم ((سيد قطب)) في كتابه ((النقد الأدبي أصوله ومناهجه)) المناهج تقسيما ثلاثيا (الفني ، التاريخي ، الفني) مشيرا إلى أنّ " مجموع هذه المناهج قد ينشأ لنا منهجا كاملا ؛ نسميه (المنهج المتكامل) يتناول العمل الأدبي من جميع زواياه ،ويتناول صاحبه كذلك، بجانب تناوله للبيئة والتاريخ ، وأنه لا يغفل القيم الفنية الخالصة." [2] لذا فضّله على سائر المناهج من باب أنّه حسب تعبيره " ينتفع بهذه المناهج الثلاثة جميعا ، ولا يحصر نفسه داخل قالب جامد أو منهج محدّد ."[3]

أما الناقد ((شكري فيصل)) فقد قسّم في كتابه ((مناهج الدراسة في الأدب العربي)) المناهج النقدية من منظور النظريات تقسيما سداسيا (النظرية المدرسية ، نظرية الفنون الأدبية ، نظرية خصائص الجنس ، نظرية الثقافات ، نظرية المذاهب الفنية ، النظرية الإقليمية) مشيرا إلى أمكانية التأليف المنهجي بين هذه النظريات تحت مسمى جديد هو (المنهج التركيبي))،فحسب رأيه " أنّ هذه النظريات لا تستطيع أن تلفّ هذا الأدب كلّه وتشتمل عليه،ولذا كان لابدّ من هذا المنهج التركيبي الذي يقوم على وصل نتائج الدراسات المختلفة ." [4]

وهكذا بدأت منذ مطلع ستينيات القرن المنصرم قائمة أنصار هذا المنهج تتوسّع بأسماء جديدة تسعى إلى تكريسه والترويج له ، أو على الأقل الاعتراف بالانتماء المنهجي إليه ، ومن بين هؤلاء الناقد ((شوقي ضيف)) الذي رأى أنّه " قد اتضحت لنا المناهج المختلفة في تفسير الشعر وتحليله وتقويمه ، وما نشكّ في أن من واجب الناقد الحديث أن يفيد من هذه الطرق جميعا في نقده ." [5] ويصرّح الناقد ((محمد صادق عفيفي)) بتبنيه لهذه الرؤية

النقدية الجديدة في كتابه ((النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي)) حيث يقول : " المنهج الذي نرتضيه وتوافقنا عليه جمهرة من الأدباء والنقاد هو المنهج الذي يأخذ من كل هذا ومن غير هذا ..." [6] وكذلك يقدّم الناقد ((محمد مصطفى هدارة)) شهادة منهجية حول تجربته النقدية يعلن فيها انتماءه النقدي الواضح إلى مثل هذا المنهج :" ... أما منهجي في تحليل النصوص فهو مزيج من مناهج متعدّدة،منها الجمالي والنفسي والتاريخي والأسلوبي ، وأرى في الاقتصار على منهج واحد حجبا لقيم نقدية كثيرة مؤثرة في تحليل النصوص." [7]

وقد دعت جماعة من النقاد إلى ضرورة التزام الحذر والحكمة أثناء الممارسة النقدية التكاملية ، وذلك تفاديا لتحويل الدراسة إلى " كومة أو خليط من المعلومات التي لا تخضع إلى أي ضابط أو نظام ، داعية إلى وجوب التقيد باستراتيجية محدّدة تتسم بالانتقاء الواعي،حيث يتكأ الناقد على منهج محدّد ، يجعل منه نقطة ارتكاز ،أو محور انطلاق ، ينطلق منه لاستفادة من بقية المناهج ، بحسب حاجته إلى كل منها في الوقت المناسب والمكان المناسب،على أن يعود إليه بعد تحصيل الفائدة المرجوّة ، وبذلك فقط يكتسب البحث ثراءه دون أن يفقد نظامه ."[8] ومن هؤلاء النقاد الناقد ((حسام الخطيب)) الذي أعلن عن مثل هذه الروح المنهجية ،قائلا : " طوّرت بالتدريج نظرة (وليس نظرية) أسميتها حتى الآن (التكاملية المركزية) ؛ بمعنى أنّ الموقف الأساسي هو تكاملي ؛ أي مبني على الإفادة من مختلف الأفكار والنظريات ، ومفتوح للتعديلات والتغييرات ، ولكنه ليس فوضويا ، ولا تلفيقيا ، ومن هنا كان مركزيا ؛ أي إنه ينطلق من منطلقات محدّدة أو عناصر مكونة يختلف ترتيب أولوياتها وأسس قوّتها حسب مقتضيات طبيعة النص. " [9]

ولعلّ خير من يمثّل هذه ((التكاملية المركزية)) نظريا وتطبيقيا ، الناقد اللبناني ((سامي سويدان)) ،حيث أعلن في كتابه ((أبحاث في النص الروائي العربي)) عن قصور المنهج الواحد عن الإحاطة بالمعطيات الكلية للنص ؛ لأن تعدّد أبعاد النص وتنوعها يقتضي مساهمة أكثر من منهج في استقصائها ، هذا الإسهام المشترك يولّد منهجا مركّبا أو متعدّدا ، مع ضرورة تغليب منهج ما يتّفق وغلبة المستوى المناظر له في النص .

ونجد أيضا الناقد ((عبد الرحمان محمد القعود)) يدعو إلى وجوب الالتزام بالمنهج التكاملي المشدود إلى مركز منهجي مع مراعاة اتساق العناصر المركب بينها في هذا النطاق التكاملي يقول في مقدّم كتابه ((الإبهام في شعر الحداثة)) : " لم أشأ أن ألتزم منهجا أو تقاليد وأفكار مذهب نقدي محدّد ، لقد قرّرت ان أتجوّل في المذاهب النقدية ، وبخاصة الحديثة بحكم موضوع الدراسة ، هو أكثر عطاء ، لم تكن عندي حساسية اتجاه أي منهج أو مذهب بقدر ما كان عندي من حرص على تعرّف مقولاته وأفكاره والإفادة منها مما يمكن الإفادة منه . لهذا وظّفت مقولات أسلوبية وبنيوية وسميائية وتفكيكية وعلم نصية وتأويلية وجمالية تلقية ، كما وظّفت مقولات من النقد العربي القديم ، أي إنّ ما نهجته هو منهج مركب من عدّة مناهج تتسق جميعها في الأساسيات والركائز المعرفية ، وهو اتساق يجعل التركيب بين عناصرها أو بعضها أمرا مشروعا من الوجهة المنهجية ."[10]

أما الناقد ((نعيم اليافي)) فيعدّ من بين النقاد الأكثر تشيعا لهذا المنهج ، وهو ما عبّر عنه قائلا في مقدّمة كتابه ((في النقد التكاملي)) : " المنهج التكاملي هو المنهج الذي يشرئب له النقد الآن،وربما في العقود المنظورة الآتية ."[11] كما دعا في كتابه ((أوهاج الحداثة)) إلى ما اسماه ((المنهج المتعدّد المتكثر)) ، على أساس أن التركيب هو سبيل الخلاص من أزمة المنهج،والفكاك من خطورة التشدّد والزيف التي هي من نتاج (الواحدية) في نظره ن مبيّنا الفوارق الجوهرية بين عملتي (التركيب) و(التلفيق) ؛ فالتلفيق عملية كمية تقوم على الجمع بين المتناقضات ،إن التلفيق عملية كيميائية سبيلها الخلط وغايتها الابقاء على ما كان كما كان ، أما التركيب فعملية فيزيائية نوعية معقّدة تقوم على الصهر والتذويب بنسب مختلفة وصولا إلى نتاج أو مركب جديد." [12]

_ المعارضون :

يعتبر أصحاب هذا الرأي أن الدعوة إلى مثل هذا المنهج ، ليست سوى حلما منهجيا جميلا يصعب تحقيقه ، فهي دعوة " لا تخلو من عوائق وصعوبات تجعل منه طموحا أكثر

منه منهجا علميا ، ودعوة مثالية أكثر منها برنامجا واقعيا ، على حدّ تعبير ((صالح هويدي)) ."[13] وهذا ما جعل هذه الجماعة تعارض هذه الممارسة النقدية وتصفها بالتلفيق تارة وبالانتقاء والتناقض والخلط والجمع تجتمع البتة تارة أخرى ؛ فالمنهج التكاملي في نظرهم هو مجرّد تلفيق وترقيع من الصعب جعله منهجا قائما بذاته .

ومن الرافضين لهذا المنهج نذكر : الناقد ((سعيد علوش)) الذي وصفه بـ " النظرة التوفيقية والمتذبذبة " ، وكذا الناقد ((جابر عصفور)) الذي يرى أن العملية النقدية التي تتصوّر النقد أخذا من كل منهج بطرف هي " عملية تلفيقية تؤدي غلى الفوضى وتضارب المفاهيم ، وأحيانا يكون وضع الناقد الذي يأخذ من كل شيء بطرف أشبه بوضع جهاز الراديو الخرب الذي يذيع عشرة محطات إذاعية في نفس الوقت ، ولن يكون هنالك أي شيء سوى التشويش." [14]

أما الناقد ((شكري عزيز ماضي)) فقد اخذ على المنهج التكاملي ثلاثة مآخذ : [15]

أولا : يتكوّن (المنهج المتكامل) من مجموعة من المناهج ، فهو لا يشتق مفاهيم الأدبية ومعاييره النقدية من الحركة الإبداعية ، بل من المزج بين المناهج النقدية الأخرى.

ثانيا : إذا كان المنهج تعبيرا عن رؤية متكاملة للأدب ودوره والنقد ووظيفته ، فكيف يمكن التوفيق بين رؤية هذه المناهج المتباينة أصلا.

ثالثا : إن عملية الجمع أو المزج بين هذه المناهج مع المرونة النسبية في إيثار أحدها على الآخر في هذا الموضوع أو ذاك تفرض _ في التحليل الأخير_ الانتقاء والاقتطاف ، ولا شكّ أن الانتقاء والاقتطاف يعني تشتّت المصادر وتعدّدها ؛ أي يعني فقدان المنهج .

ج_ الممارسة النقدية التركيبية :

عبّر الناقد ((عبد المالك مرتاض)) صراحة عن كفره بما أسماه " خرافة المنهج التكاملي"،وهو ما أشار إليه في مقدّمة كتابه حول الحكاية الشعبية ((ألف ليلة وليلة))

يقول: " أولى لنا أن ننشد منهجا شموليا ، ولا أقول منهجا تكامليا ؛ إذ لم نر أتفه من هذه الرؤية المغالطة التي تزعم أنّ الناقد يمكن أن يتناول النص الأدبي بمذاهب نقدية مختلفة في آن واحد ، فمثل هذا المنهج مستحيل التطبيق علميا ؛ إذ لو أردنا أن نطبّقه على نص أدبي ، في تصوّرنا على الأقل ، كان علينا أن ندرسه من الوجهة الاجتماعية ، ثم من الوجهة البنيوية ، ثم من الوجهة الألسنية ، ثم من الوجهة التينية ، ثم من الوجهة اللانسونية الجمالية ، وهلم جرا إلى ما لا يحصى من المذاهب والنزعات ، فهل مثل هذا العمل ممكن الحدوث ؟ وكيف يجوز التقوّل على النص الأدبي البريء والعبث به على هذا النحو المريع ؟ ومهما يكن من أمر فإن مثل هذا السلوك الفكري يشبه الشطحة البهلوانية التي لو طبّقت في مجال العمل لأمست ضحكة هزأة سخرة إلى ما لا حدود له من المعاني الدالة على الضحك والسخرية والاستهزاء ، إذ كان علينا ، أو سيكون علينا ، ولا كان ذلك على كل حال ، وهو مستحيل الكينونة على كل حال ، أن ندبّج عدّة مجلدات عن حكاية شعبية واحدة أو قصّة واحدة ، أو قصيدة واحدة ، أو رواية واحدة ، على أساس أنّنا نعالجها من مستويات منهجية متباينة ، كل مستوى يهيم في واديه السحيق ، إلى أن يرسب في البحر العميق ."[16]

وبالرغم من هذا الهجوم العنيف على مثل هذه الرؤية والممارسة النقدية ، إلا أننا نجد ((مرتاض)) يبدو مناقضا لجوهر فكرته التي تشيع لها ، حيث قام بتطبّق منهج مركب ، وهو ما تشي به عناوين كتبه اللاحقة : ((تحليل الخطاب السردي _ معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية " زقاق المدق ")) ، ((شعرية القصيدة قصيدة القراءة لقصيدة " أشجان يمنية)) ، ((ألف ليلة وليلة _ تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمال بغداد)) ، ((قصيدة أين ليلاي لمحمد العيد آل خليفة _ دراسة سيميائية تفكيكية _)) ، ((التحليل السيميائي للخطاب الشعري _ تحليل مستوياتي لقصيدة شناشيل أبة الجلبي)) ....

ولنا أن نتسأل هل الممارسة النقدية التركيبية تختلف عن الممارسة التكاملية ؟

لا شك أن (التركيب) من وجهة نظر مرتاض يختلف عن (التكامل) ، وذلك في حرص الأول على التجانس المنهجي بين عناصر التركيب ، وانبناء المركبات المنهجية على قدر كبير من التوحد الابستيمولوجي ، بينما لا تتشدّد بعض الآراء التكاملية على ذلك ، فقد يحدث تكامل بين مناهج متناقضة في الرؤى ، متعارضة في المنطلقات .

ولتوضيح فكرة التركيب المنهجي راح الناقد ((يوسف وغليسي)) يحدّد التركيب المنهجي بقاعدتين أساسيتين هما : [17]

1 _ يجوز تكييف المنهج الواحد بمنهج إجرائي مساعد ، لا يسيء إليه بل يثريه ويغنيه ، كأن يكون (المنهج الإحصائي) الذي قد يستوعبه أي منهج آخر

2_ يجوز التركيب بين مناهج صادرة عن رؤية نظرية موحدة ، أو منطلقات وخلفيات فلسفية متقاربة أو متجانسة .

وهو التركيب الذي قام به مرتاض بين البنيوية والأسلوبية تارة ، وبين السيميائية والتفكيكية تارة أخرى ، كما قام الناقد ((عبد الله الغذامي)) بالتوليف بين أربعة أطراف منهجية منحدرة من جذر ألسني واحد موحد ، واعترافه الصريح بعدم الالتزام والتقيد بمنهج بعينيه ، وإنما كان سبيله النزوع دوما نحو التركيب : " لست بنيويا ، أنا استخدم البنيوية،ولكني من حديث التصنيف العلمي ، أنا ناقد ألسني ، والألسنية هي علم اللغة ،وتحت مظلّة علم اللغة تأتيك البنيوية ، وتأتيك السيميولوجية ، وتأتيك التشريحية ، وتأتيك الأسلوبية ، هنالك أربعة مناهج تحت مظلّة النقد الألسني . الشيء الوحيد الذي أنا نلتزم به هو مبدأ النقد الألسني . أما مسألة أن أكون بنيويا أم لا ، فهذه مسألة لست ملتزم بها على الإطلاق، أنا استخدم البنيوية في أوقات معيّنة ، واستخدامي لها هو استخدام انتقائي . أنا أستخدم بعض أدواتها وارفض أدوات أخرى منها ، مثلما أني أستخدم بعض أدوات السيميولوجية وبعض أدوات التشريحية وبعض أدوات الأسلوبية . أنا أخرج بمزيج من المناهج الأربعة يصدق عليه وصف النقد الألسني ، لكن لا يصدق عليه وصف

البنيوية فقط ، أو السيميولوجية فقط ، أو التشريحية فقط ، أو الأسلوبية فقط . منهجي هو مزيج من هذه الأربعة ، لكنه يظل شيئا تحت مظلّة النقد الألسني ، ولهذا فإني أسمي دراساتي دائما بالنقد الألسني . "[18]

الإحالات :

[1] نعيم الوافي: في النقد التكاملي ، مجلة (البيان)،الكويت ، عدد306، يناير 1996،ص09.

[2] سيد قطب : النقد الأدبي أصوله ومناهجه ، دار الشروق ، القاهرة ، دط ، دت ، ص114،ص226.

[3] المرجع نفسه ،ص06.

شكري فيصل :مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي ، دار العلم للملايين ، ط5 ، بيروت ، [4] 1982،ص07_08.

[5] شوقي ضيف :في النقد الأدبي ، دار المعارف ، مصر ،ط6، دت ،ص57.

محمد صادق عفيفي : النقدالأدبي الحديث في المغرب العربي ، مكتبة الرشاد _دار الفكر،ط2، [6] 1971،ص72.

[7] مجلة(فصول) المصرية ،م 09، العددان ¾ فبراير 1991،ص189.

الربيعي بن سلامة : الوجيز في مناهج البحث الأدبي ، منشورات جامعة منتوري ، قسنطينة ، [8] 2001_ 2002،ص67.

[9] فصول : م.س ،ص 175.

[10] عبد الرحمان محمد القعود : الإبهام في شعر الحداثة ، عالم المعرفة ، الكويت ، مارس 2002،ص13.

[11] نعيم اليافي : في النقد التكاملي ،ص07

[12] نعيم اليافي : أوهاج الحداثة ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ،دط ، 1993،ص156.

[13] صالح هويدي : النقد الأدبي الحديث قضاياه ومناهجه ، منشورات السابع من أبريل ، ليبيا ، 1426،ص140.

[14] محاورة مع جابر عصفور ضمن كتاب أسئلة النقد ،ص70.

[15] شكري عزيز ماضي : من اشكاليات النقد العربي الجديد ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط1، بيروت ،1997، ص192_193.

[16] عبد المالك مرتاض : ألف ليلة وليلة ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ،دط ، 1993 ،ص10

[17] الخطاب النقدي عند عبد المالك مرتاض، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ،2002،ص89_96.

[18] محاورة مع عبد الله الغذامي ، ضمن كتاب اسئلة النقد ،ص 210.